لقاءات رمضان ١٤٣٤هـ

اللقاء السادس والعشرون: تفسير الآَية ٢٩ من سورة الفتح

أ.أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، وسمحت لهنّ الأستاذة بنشرها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تُنشر في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/#!/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

http://www.muslimat.net/

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضا.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا السادس والعشرون من اللقاءات الرمضانية التي نسأل الله عزّ وجلّ أن يتقبّلها ويجعلها من الأعمال الصالحة التي تكون ذُخرًا لنا يوم أن نلقاه.

ومن نعمة الله على خلقه أن حبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، **ومما حبّب الله لأهل الإيمان: حبّب إليهم نبيّهم صلى الله عليه وسلم، وحبّب إليهم صحابته الكرام**، وكيف لا نحبّه صلى الله عليه وسلم وهو طريق الهدى لأهل الإيمان! وكيف لا نحبّ صحابته الكرام وهم من كانوا نموذجًا لتحمّل الآلام في سبيل نشر هذا الدين! فقد تابعوه صلى الله عليه وسلم في وقت الضيق، وكانوا معه في أشدّ الأحوال، وكانوا هم من اختارهم الله واصطفاهم لصحبته، وقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروع الأمثلة في محبته صلى الله عليه وسلم، فهذا التاريخ العظيم الذي يشهد على ما يحمله الصحابة من حبّ وتعظيم نحتاج إلى تحريكه في نفوسنا قربة إلى الله وحبًّا لله، فنحن نحب نبي الله من حُبّنا لله، ونحب الصحابة الكرام من حُبّنا لله ولرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإذا قلّبنا صفحات التاريخ.. وجدنا امتثالاً لا يقابله امتثال، وائتمارًا لا يقابلها ائتمار، سكن في نفوسهم تعظيم النبي وتوقيره، وسكن في نفوسهم ودّه ومحبّته، فلما تسمع مثلاً:

- أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ويقول "اجلسوا " فجلس وكان خارج المسجد! فلما انتهى من خطبته صلى الله عليه وسلم بلغ ذلك الرسول فقال: ((زادك الله حرصًا على طواعية الله وطواعية رسوله))[١] فهل مثل هذا الحرص يقابله حرص؟! ومثل هذه الطاعة تقابلها طاعة؟!

[١] رواه البيهقي في "دلائل النبوة". وروى أبو داود في "السنن" بسنده عن جابر –رضي الله عنه– قال: "لما استوى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يوم الجمعة قال: اجلسوا، فسمع ذلك ابن مسعود، فجلس على باب المسجد، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: تعال يا عبد الله بن مسعود". صححه الألباني.

- وقد ورد عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ ابْنِ عُمَرَ فِي سَفَرٍ، فَمَرَّ بِمَكَانٍ فَحَادَ عَنْهُ، فَسُئِلَ لِمَ فَعَلْتَ؟ فَقَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَ هَذَا فَفَعَلْتُ![1] وهذا تعليل كاف.

فمعنى هذا أن كل حبّ لهم سيكون قربة لله، وكل ذكر لهم سيكون مما يحبه الله، نترضّى عنهم جميعًا، ونُظهر محاسنهم، ونعلم من هم عند الله، ونعلم بشريّتهم، وهذا مما يميّز هذا الدين العظيم، ثم إننا لما نحبهم هذا الحب لابد أن تأتي له صور للتعبير عنه، **فمن ذلك:**

- الدفاع عنهم لما يتعدّى عليهم متعدٍّ.
- والحرص على معرفة سيرهم .
- وجعلهم قدوات في أعين أبنائنا.
- ونشر فضائلهم .
- الكف عما شجر بينهم وكتمان ما نُقل من مواقف صحيحة يظهر فيها بشريتهم، إنهم بشر.
- وحبّ تسمية أبنائنا بأسمائهم، وجعل ذلك عند الناس من الأمور المزكاة المحبوبة وغير ذلك مما يلزمنا.
- ومن أهم ما يلزمنا في حبهم: أن نعرف كيف أثنى الله عليهم في القرآن لكي نثني عليهم بما أثنى الله

ومن هذا دراستنا لسورة الفتح.

ففي هذه السورة العظيمة يبرز مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم عند ربه، ومكانة الصحابة عند الله، والأعجب من ذلك: وأن خبرهم في التوراة والإنجيل، فإن كنا سمعنا كثيرا أن القرآن مصدقا لما في التوراة والإنجيل من أصول العقائد والشرائع والدين، فاسمع أيضًا أن القرآن مصدقًا لما في الكتب السابقة من التوراة والإنجيل في وصف الرسول ووصف أصحابه، فأي مكانة لهؤلاء عند الله يصفهم في الكتب السابقة للأقوام السابقين؟! هل نعلم ما معنى ذلك؟

معناه أنهم كانوا قدوات قبل أن يأتوا! كانوا منارات للهدى قبل أن يكونوا!

فسبحان الملك العظيم الذي يصطفي من يشاء ويختار!

سبحان الملك العظيم الذي بيده ملكوت كل شيء وهو العليم الحكيم!

[1] رواه أحمد والبزار بإسناد جيد، قال الألباني صحيح.

هذه السورة العظيمة إذا نظرنا لمطلعها سنجد أمرًا عجبًا، وإشارة هي من أعظم الإشارات لمكانة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كما ورد -في البخاري والموطأ- عن سورة الفتح: ((لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ)) ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾[1] . وهي أحب إليه صلى الله عليه وسلم مما طلعت عليه الشمس -والله أعلم- لما اشتملت عليه من قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾.

وقد أخرج مسلم والترمذي عن أنس رضي الله عنه: " لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مَرْجِعَهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ"، -يعني وقت رجوعه من الحديبية كما يقول أنس رضي الله عنه- فقال: ((لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا))[2].

فهذا مما يجعل لهذه السورة مكانة في نفوسنا، أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول أنها أحب إليه مما على وجه الأرض، والأمر بيّن واضح، إذن هذه السورة لها علاقة بواقعة الحديبية، ومعلوم ما حصل في الحديبية من خروج المسلمين من المدينة إلى مكة يريدون العمرة فردهم قريش واعتذرت باعتذارات كثيرة، وخرجوا في ذاك الموقف بأمور عظيمة في صالح المسلمين، من أعظمها أن الحديبية كانت فتحًا لمن يفقه أفعال الله.

وقد رُوي أن المسور بن مخرمة رضي الله عنه ومروان بن الحكم قالا: "نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية وَقَدْ حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ نُسُكِنَا، قَالَ: فَنَحْنُ بَيْنَ الْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ" يحزنون ويكتئبون أن رُدوا عن البيت العظيم، فإن من عرف هذا البيت، عرف الشوق! وعرف ما معنى أن يقطع عليه قاطع ويمنعه مانع من الوصول إلى البيت، نعوذ بالله أن يقطعنا قاطع أو يمنعنا مانع.

قَالَ: فَنَحْنُ بَيْنَ الْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: {مُسْتَقِيمًا}، أَوْ كَمَا شَاءَ اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم -: لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا، وَقَالَ عَاصِمٌ: آيَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا[3].

---

[1] "صحيح البخاري" (كتاب المغازي، باب غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَةِ، ٤١٧٧).
[2] "صحيح مسلم" (كتاب الجهاد والسير، باب صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ فِي الْحُدَيْبِيَةِ، ٤٧٣٧).
[3] مستخرج أبي عوانة.

فالمعنى أنهم كانوا في حالة ضيق، يقول الصحابة نحن بين الحزن والكآبة، فهذه حال نزول السورة وهذه الحال تُنبئنا نبأً عظيمًا:

أن الله اللطيف الخبير الحكيم العليم يقدر الأمور بحكمة وبلطف، فضيق تصور الإنسان الحقائق يجعله لما تأتي عليه أحداث وتقطعه عن الوصول خصوصًا لو كان صاحب طاعة وإيمان، وتأتي عليه أحداث تقطعه عن الوصول عن مراد الله، حزنه في مكانه، كآبته أن انقطع عليه باب من أبواب الخير في مكانه، لكن ما ألطف الله، ما أرحمه بعباده! ينزل القضاء وينزل معه ما يكون بردًا وسلامًا على من قضى عليه، إنه يعامل خلقه بعظيم رحمته ولطفه، فهل من مثنٍ عليه، شاكر لنعمائه، واثق في حكمته في قضائه؟!

اللهم اجعلنا من أولئك الذين يحسنون الظنّ بك، فإن سوء الظنّ بالله من أعظم الجرائم، وقد أشير إليه في هذه السورة ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ كلهم يشتركون في ماذا؟ ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ عليهم من الله ما يستحقون، ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ نعوذ بالله، ونكرر استعاذتنا به من سوء الظنون، لابد أن نخرج بهذه النتيجة المهمة: الذي يصرفنا في السماء عليم حكيم، ربٌّ لطيف ونحن نعيش في آثار حلمه وستره ولطفه ونشهد بذلك.

نبدأ من أول السورة في ذكر أغراضها لكي نصل إلى خاتمتها التي هي مقصودنا في ذكر ما مثل به المثل الذي ضرب للصحابة في السورة.

تضمّنت هذه السورة بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بحسن عاقبة صلح الحديبية، وسماه الله نصرًا وفتحًا، فهذه التسمية ماذا فعلت في المؤمنين؟

هم كانوا بين الحزن والكآبة، فنزلت بذلك السكينة على قلوب المؤمنين، وأزال الله عزّ وجلّ حزنهم الذي وقع في قلوبهم بسبب صدهم عن الاعتمار بالبيت، لما رجع المسلمون عادوا كالخائبين، هذه صورتهم، فأعلمهم الله بأن العاقبة لهم، وأن دائرة السوء على المشركين والمنافقين، وأظهر كرامة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه، وأثنى على المؤمنين الذين عزروه وبايعوه، وأن الله قد قدم مثلهم في التوراة وفي الإنجيل، وهذا ما تحتويه هذه السورة، ذكر في السورة البيعة التي حصلت في الحديبية، وذكر في السورة فضح الأعراب الذين تخلفوا، وكيف أن الله منعهم من المشاركة في غزوة خيبر وأنبأهم أنهم سيدعون إلى جهاد آخر فإن استجابوا غفر لهم عن تخلفهم عن الحديبية،

وأيضا هذه فيها شهادة لمكانة أبي بكر رضي الله عنه، وهذا أيضا يحتاج لفهم دقيق لمعرفة ذلك، نرجو من الله أن يبارك في الأوقات ويبارك في الأعمار فنفهم كتابه العظيم.

المقصود أن السورة بدأت بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ المغفرة ستأتي من الله لعبده الذي له مكانته عند ربه، فهذا الفتح لكي يتمم له صلى الله عليه وسلم المكانة العليا وهو صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وخليل الله، له مكانته العظيمة عند ربه، فأتى هذا الفتح، وأتى رضاه صلى الله عليه وسلم بفعل الله، كل هذا أتى لرفع مكانته صلى الله عليه وسلم. فكانت مغفرة الله له أحب إليه من كل شيء ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾.

ومع هذه المغفرة هناك تمام النعمة، ومع تمام النعمة الهداية إلى الصراط المستقيم، ومع ذلك النصر العزيز، فكيف يُرَدّون عن البيت ويكون فتحًا؟ ولذلك ورد في الحديث لما نزلت هذه الآية قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: أَوَ فَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ)) [1] فالناس كيف يفكرون لو كانوا في هذا الموقف؟ كيف يقدرونه؟

فلنفهم كيف يُقدر مثل هذا الموقف، وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة، وكان يريد العمرة، رُدّ عنها! لكن لما رُدّ عنها كان لهم أن يقضوها السنة القادمة، ثم أعطوا الأمان وعادوا سالمين غانمين إلى ديارهم مأجورين، وقد مرّ يوم أحد وحصل منهم ما حصل لكن هنا الله عزّ وجلّ ردّهم سالمين غانمين، ثم حصل بعد هذا الأمن أمرًا عظيمًا وهو أن الناس دخل بعضهم في بعض، فاستطاعوا أن يدخلوا البوادي، واستطاعوا أن ينشروا الدين، واستطاعوا أن يكونوا في أمن في حالهم، فهذا كله من عطايا الله التي قدر أن تكون بهذه الطريقة.

ثم إنهم لما ذهبوا إلى الحديبية كانوا ألف وثلاث مائة، فلما عادوا في فتح مكة عادوا عشرة آلاف! وهذا كله من فضل الله على المؤمنين، وكيف أنهم لما امتثلوا الأمر، ورضوا بقضاء الله، وظنّوا في الله الظنّ الحسن، ما كان إلا عطية من الله وهبهم هذا الفتح العظيم. ولذلك كلمهم وكلموه صلى الله عليه وسلم وراجعوه حزنًا وانتصارًا للدين وليس هربًا وخوفًا، وقد قيل أن الصحابة بعدما كلمهم النبي صلى الله عليه وسلم وكلموه وراجعوه وراجعهم صلى الله عليه وسلم كما روى البيهقي عن عروة بن الزبير أنهم قالوا له: "صدق الله ورسوله وهو أعظم الفتوح، والله يا رسول الله ما ذكَّرنا فيما ذكرت، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا" [2]، فهذا من تمام رفعة منزلتهم رضي الله عنهم.

---

[1] المستدرك على الصحيحين ، هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ

[2] رواه البيهقي في "دلائل النبوة"

ونقرأ في هذه السورة كما كان مطلعها بيان مكانة النبي صلى الله عليه وسلم وما يعطيه ربه يأتي في الآيات:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ هذا من مكانة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه ﴿ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ثلاثة صفات غاية في الأهمية، ﴿ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ تشهد على الأمة بالتبليغ، والنتيجة، لا يُعذر المخالفون عن الشريعة، وهذه الشهادة حاصلة في الدنيا ويوم القيامة.

فإذا أُرسل صلى الله عليه وسلم شاهدًا، إذن معناه أنه سيُبلغ الدين، وسيترتب على هذا التبليغ أنه مبشر للمطيعين ونذير للعاصين على اختلاف مراتب العصيان. تأتي الآية التي بعدها:

﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ وهنا ذكر حق الله وحقّ الرسول صلى الله عليه وسلم:

- ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ← الحقّ المشترك.
- ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ ← أي تعزّروا الرسول صلى الله عليه وسلم وتوقّروه بمعنى تعظّموه وتجلّوه وتقوموا بحقوقه.
- ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ← أي تسبّحوا الله بكرة وأصيلا: أي أول النهار وآخره.

ففي هذه الآية ذكر الحق المشترك بين الله وبين رسوله وهو الإيمان بهما، والحق الخاص بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو التعزير والتوقير، والحق الخاص بالله وهو التسبيح له سبحانه وتعالى والتقديس، وبذلك نعلم أن الأمور بهذه الطريقة:

١. حق الله
٢. حق النبي صلى الله عليه وسلم
٣. ثم تأتي بقية الحقوق.

وعلى كل حال هذا الأمر متبيّن في كثير من الشرائع، فإذا نظرنا مثلا للتحيات خاتمة الصلاة سنجد الأمر يبتدئ بحق الله عزّ وجلّ، ثم حق النبي صلى الله عليه وسلم، ثم حق نفسك والمسلمين، فأنت تُحيي الله وتقول (التحيات لله) وتشهد أن لا إله إلا الله، ثم تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وتطلب من الله وتدعو الله أن يصلي عليه

كما صلى على إبراهيم، ثم إنك تدعو لنفسك، وهذا موطن من أعظم مواطن الدعاء في الصلاة ألا وهو بعد الصلاة الإبراهيمية.

ننظر إلى الصلاة على الميت بنفس الطريقة، تقرأ الفاتحة هذا حق الله، تصلي على الرسول صلى الله عليه وسلم في التكبيرة الثانية هذا حق الرسول، ثم تدعو للميت للأحياء وللأموات تخصهم بالدعاء فهذا حقك وحق المسلمين.

فإذا علمنا هذا بقي علينا أن نسير على هذا الأمر في كل شيء، قدّم حق الله على جميع الحقوق ثم حق النبي صلى الله عليه وسلم ثم حقك وحق المسلمين، والأمر الحمد لله غاية في الوضوح، وهذا الدين غاية في اليسر، بفضل الله عزوجل وكل الذي نحتاجه أن نكون صادقين ونحن نتعامل مع الله فلا نضيع حق الله ولا حق النبي صلى الله عليه وسلم ولا حق أصحابه.

إلى أن نصل إلى خاتمة السورة التي هي مقصودنا، ختمت هذه السورة العظيمة كما ابتدأت بالثناء على النبي صلى الله عليه وسلم والثناء على المؤمنين، فبعدما أخبر الله سبحانه وتعالى بالنصر ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا في مطلع السورة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴾ إذن هذا حظ المسلمين من هذا الفتح، فإن المؤمنين هم جنود الله الذين قد نصر النبي صلى الله عليه وسلم بهم ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] فهنا ذكرت عناية الله بإصلاح نفوسهم وإذهاب خواطر الشيطان عنهم كما فتح الله للنبي فتحًا مبينًا وغفر له وأتمّ نعمته وهداه ونصره قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴾، إذن هنا عناية الله بإصلاح نفوس المؤمنين وإذهاب خواطر الشيطان عنهم، وقد ألهمهم الحق وثبتهم وثبت عزائمهم وثبت هذه العزائم وأقرّ الإيمان في القلوب، كل هذا من فضله سبحانه وتعالى على المؤمنين.

في بداية الأمر وقع أن المؤمنين تبلبلت نفوسهم، جاؤوا للعمرة، ظنوا أنهم لا يعودون، رُدّوا، كانت الصورة كأنهم انتصروا عليهم، ثم سُمّي هذا فتحًا، ثم تداولوا الأمر إلى أن اطمأنت نفوسهم بعد الاضطراب، ورسخ يقينهم بعد خواطر الشك، فلولا ذلك الاطمئنان والرسوخ لبقوا كاسفي البال شديدي الاضطراب، فذلك الاطمئنان الذي حصل لهم هو الذي سماه الله بالسكينة، وسمى إحداثه في نفوسهم إنزالاً للسكينة في قلوبهم، فالله أنزلها إنزالاً.

---

[1] الأنفال:٦٢

إذن هذا النصر والفتح العظيم كان من تفاصيله أن الله أنزل السكينة على صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر عظيم، إنزال السكينة على المؤمنين نصر؛ لأنه يحصل به تأليف قلوبهم مع أنهم مِن قبائل شتّى، وكان حالهم في الجاهلية حال، لكن الله عزّ وجلّ نصر نبيه بإنزال السكينة وتأليف القلوب، وهذه السكينة التي نزلت أمرها عجيب، فإن زوال ما يلقيه الشيطان في النفوس واليقين بوعد الله يحول الاضطراب الشديد الذي يكون في القلب إلى سكون تام، فلذلك سميت سكينة، لماذا؟

لأن هناك اضطراب اضطراب كأنها حركة في القلب، فلما تأتي الثقة بالله كأنه يسكن ويتوقف، يزول ما خامر العقول من وساوس الشيطان، ويدخل إلى القلب اليقين بوعد الرحمن، تنقشع الغمة، يذهب ما يمكن أن يشكك الإنسان في الحق؛ لأنه لو شك في الحق يلتحق بالمنافقين الظانين بالله ظن السوء، لكن من لطف الله بالخلق أن يعطيهم هذه السكينة العجيبة التي هي نعمة عظيمة يستحقها من عرف الله، وتفكّر في عظمته وآلائه ودعاه، ودعاه وألحّ عليه في الدعاء، خصوصًا في مثل هذه الأيام الفاضلة، فإننا نرجو من الله وهو العظيم الكريم أن يثبت الإيمان في قلوبنا، وأن ينزل علينا برد اليقين، ويذيقنا السكينة التي يذوقها المؤمنون، فإن هذا من أعظم عطايا الله للخلق.

وإنه يؤسفنا أن نسمع اليوم بعد اليوم من السفهاء الذين فقدوا عقولهم يسجلون مقاطع وينزلونها ويكتبون تحتها (لماذا تركت الإسلام، لماذا ارتدت عن الاسلام ؟!) كلها كلمات كفرية، فسق!! لما تسمعهم تعرف أنهم مضطربون، أقل كلمة تقولها في حقهم أنهم مرضى نفسيون، فمن ذاق برد اليقين ذاق النعيم المقيم، فنسأله وهو مالك القلوب أن يثبت علينا الإيمان في قلوبنا، وأن يصرف عنا الشك صرفًا، ما لنا إلا الالتجاء إليه والثناء عليه والفقر بين يديه.

المقصد من هذه الإشارة بيان أن مطلع السورة وخاتمتها منطبقين في المقصود، فمطلع السورة فيه ثناء على الرسول وعلى المؤمنين.

فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ﴾، ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ﴾ ، ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ﴾، ﴿وَيَنصُرَكَ﴾ كل هذا للنبي الكريم.

والمؤمنين كان حظهم من هذا الفتح إنزال السكينة في قلوبهم ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا﴾ فما ألطفك بالمؤمنين، وإن سبب زيادة الإيمان هنا هو إنزال السكينة، فهو الذي يسبب لعباده أسباب زيادة الإيمان، فنسأل الله عزّ وجلّ أن يسبب لنا أسباب زيادة الإيمان.

إلى أن نصل إلى الخاتمة التي هي مقصدنا التي فيها ثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى صحابته الكرام:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ وهذا أعظم ثناء يُثنى به على النبي الكريم، أنه رسول الله حقًّا لا مرية في ذلك، فهو الصادق، والله أراد إظهار دينه على الدين كله.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ عنايةً واهتمامًا يذكر الله عزّ وجلّ مناقبه صلى الله عليه وسلم، وهذا أيضًا فيه إشارة لطيفة لما حصل في الحديبية من امتناع المشركين من أن يكتبوا في صحيفة الصلح ((هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ)) وقالوا: لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ![1] كذبوا والله وإنهم ليعلمون أنه رسول الله، فقال الله في الثناء عليه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾.

ويأتي الشرف العظيم للصحابة الكرام فيقول في حقهم: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ ثناء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ يصاحبونه صحبة طيبة بالطاعة والتأييد، فالمراد الصحابة كلهم وابتداء بمن كان في صلح الحديبية.

إذن معنى هذا أنه يكفينا في الثناء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسمع أن محمدًا رسول من الله، وهناك مَن هم معه، والذين معه ما بهم؟ لهم صفات، صفات الكمال، والذين معه سيكونون هم أيضًا ممن أرسلهم الله، بأي شيء أرسلهم؟ كلفهم الله سبحانه وتعالى بنشر الهدى والتوحيد.

والمعنى هنا أنهم تحملوا ميراث النبوة، فهم كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرسل إلى البوادي والمدن فيقول الرجل منهم يعرف نفسه: رسول رسول الله، فمحمد رسول الله الرسول العظيم، والذين معه، ووصفت هذه

[1] "صحيح البخاري" (كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.، ٢٧٣١).

الصفات لهم، هم أيضًا يتحملون هذه الرسالة، وقد تحملوها أحسن تحمل، تحملوها خير تحمل، تحملوها أحسن مما يكون تحمل مهما تكلم وتكلم المنافقين، الذين أصبح اليوم لهم دولاً تحميهم، لكن عليهم من الله ما يستحقون، **أيثني الله على رسوله وصحابته الكرام، ثم يأتون فيغمزون ويكذبون؟!** لكن عليهم من الله ما يستحقون.

وصفهم الله أنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ الشدة في قتالهم وإظهار العداوة لهم، وهذا وصف مدح؛ لأن المؤمنين الذين مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم هم فئة الحق هم الذين نشروا الإِسلام، هم الذين أظهروا الغضب لله، والحب في الله، والبغض في الله، هم الذين عرفوا الايمان وعرفوا الغضب لله.

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هم أقوى المؤمنين إيمانًا، أشرقت عليهم أنوار النبوة، قلوبهم أضاءت بنور الله، لاجرم أن يكونوا أشداء على الكفار، فإن بين نفوس المؤمنين والكافرين تمام المضادة، ولم تكن كراهيتهم بسبب مواقف شخصية بينهم، وإنما كراهيتهم مبنية على كراهية الشرك، الانزعاج الشديد من التعدّي على حقّ الله، الانزعاج الشديد من أن يُدعى أحد غير الله، الضيق الذي يصيب القلوب لما تسمع أحدًا يتكلم عن الله بسوء، أليس هذا يسبب الشدة؟ هؤلاء قوم أشرقت عليهم أنوار النبوة، فما كان منهم إلا أن كانوا أشداء على الكفار.

واسمع في تاريخهم، اسمع في تاريخ الصحابة العظام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، اسمع في تاريخ هؤلاء أنهم خير من مثّلوا الإيمان، وهؤلاء الأشداء على الكفار، هذه الصفة صفة الكمال لهم، ربما فيها إلماح إلى موقفهم ومحاورتهم في إبائهم الصلح مع قريش، ربما كان هذا من شدتهم على الكفار، وكان أشدّهم عمر رضي الله عنه، وكان أفهمهم للمصلحة التي توخاها النبي صلى الله عليه وسلم في إبرام الصلح أبا بكر، فسبحان الله كيف فارق الله بين نفوسهم وكلهم على الخير والصلاح، ولذلك كان سهل بن حنيف يوم صفين يقول: "أيها الناس اتَّهِمُوا الرَّأْيَ عَلَى الدِّينِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، وَلَوْ نَسْتَطِيعُ نَرُدُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعله لَرَدَدْنَاهُ"[١] أي من شدة بغضهم للكفار كانوا يتمنون أن يقاتلوهم.

في مقابل هذا الوصف ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ وما أعظم هذه الرحمة التي هي ليست مبنية على المصالح ولا على الهوى، وإنما من أخوة الإيمان في نفوسهم، فأخوة الإيمان تكون الرحمة لابد، وقد وردت أخبار أخوتهم وتراحمهم في مواضع كثيرة من القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم.

---

[١] "صحيح البخاري" (كتاب المغازي، باب غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَةِ، ٤١٨٩).

والعجب هنا أن يجتمع أمران -خلتان متضادتان-: الشدة والرحمة، وهذا إيماء إلى أصالة آرائهم، إلى حكمة عقولهم، وأنهم هم يتصرفون في أخلاقهم ولا يميلون ميلة واحدة، فتراهم يطلبون السلام مع كل أحد، والناس يمكرون بهم وهم يطلبون معهم السلام، إنما أعمالهم وتصرفاتهم فيها الحكمة والرشد، فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى، ولا يتصرفون فقط بالجبلة إنما يؤدبون أنفسهم تأدبًا، لذلك الله عزّ وجلّ في سورة المائدة ذكر هذه الصفة على المدح ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1] معنى ذلك أنهم رحماء بينهم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ))[2] لذلك من رحمتنا بإخواننا في كل مكان أن نستغيث الله أن يرحمهم وينزل عليهم الرحمات، عاجزين عن مد أيدينا إليهم بالعون، لكن استغاثتنا بالله أعظم تعبير عن حبنا له، ولا تقل: لا أملك إلا الدعاء، بل قل: (**إني أملك أعظم سلاح إنه الدعاء!**).

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ الصحابة الكرام أهم ميزاتهم أنهم بصلاتهم معتنين وبذلهم وخشوعهم وانكسارهم موصوفين، وقد قال فيهم الله عزّ وجلّ ما يغني عن الثناء عليهم إلا أننا نسمع من بعدهم يقولون كما قال أبو العالية: "يسجدون على التراب لا على الأثواب"، إنهم قوم سجدوا على الحصى والتراب، وكان مسجد النبي مما عُرف في بنائه، وقد ورد حتى في ليلة القدر أن النبي صلى الله عليه وسلم يسجد في ماء وطين! فأيّ ذلٍّ هذا لله وأيّ فرح بالإيمان؟!

وُصفوا بهذه الصفة وهي كثرة الصلاة ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ ، ماذا يريدون؟ ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، فما أعظم هذه الصفة وما أشدّ حاجتنا لإظهارها للناس!

كانوا ركّعًا سجّدًا أهل طاعة يمدحهم الله، فكيف تذمّهم أيها المنافق؟!!.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ كم للإخلاص من عمل في قلوبهم؟! كم أثر الاخلاص في قلوبهم، يقول الله في وصفهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ شهد الله لهم بالإخلاص أنهم لا يريدون بذلك إلا وجهه .

---

[1] المائدة : ٥٤

[2] "صحيح البخاري" (كتاب الأدب، باب رَحْمَةِ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ، ٦٠١١).

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ ذكر الله عزّ وجلّ إخلاصهم، ثم ذكر أن سيماهم في وجوههم، المعنى: أن هذه السيما التي هي ظاهرة في الوجه كانت لهم في الدنيا، وستكون لهم يوم القيامة، فيوم القيامة يأتون وهم بيض الوجوه كالقمر ليلة البدر يجعلها الله كرامة لهم، فما أعظم أحوالهم! من كثرة صلاتهم بالليل حسنت وجوههم بالنهار، وهذا أمر يعطيه الله عزّ وجلّ لمن شاء، ولكن هم لهم القدح المعلى في ذلك، ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ هذه الطاعة بالذات التي هي الصلاة تورث الوجه نورًا يراه أهل الايمان في الدنيا وفي الآخرة.

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ هذا الأمر العجيب أن يُشار إلى وصفهم في التوراة قبل أن يكونوا، لابد أن نتعجب، يوصف النبي ويوصف أصحابه كأنهم حاضرين لمن كان قبلهم، ويقال: انظروا لهؤلاء هم خير الخلق! فجاء في التوراة ذكر مجيء النبي صلى الله عليه وسلم وجاء في التوراة وصف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فما أعجب حال من يقع في أعراضهم! ما أعجب حاله!

زكاهم الله في كتابه وفي الكتب السابقة، واختارهم واصطفاهم، فتأتي وتتجرّأ عليهم؟! عجب! ولكن نسأل الله عزّ وجلّ أن يثبت علينا الإيمان، إن القوم جرّوا وراء أهوائهم وما تشابه عليهم دون أن يطلبوا من الله أن يدلّهم الحق.

هذا مثلهم في التوراة، نرى مثلهم في الإنجيل، وما أعجب مثلهم في الإنجيل:

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ ما معنى كزرع؟ هنا تمثيل، أي مثل، شُبّه الصحابة بالزرع وما فيه من الخير، وكيف دخل الإيمان في قلوبهم فنما كنموّ الزرع، ثم هم ينمون الإيمان في قلوب غيرهم بالدعوة حتى يكثر المؤمنون كما تنبت من الحبة مائة سنبة، وكما تنبت من النواة الشجرة العظيمة.

﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ﴾ هذه الحبة ماذا حصل فيها؟ خرجت وتفرعت ونما بجانب الأصل شجرات صغيرة.

والشطأ هو فراخ الزرع، وفروع الحبة، فروع صغيرة، أي تأتي ساق متينة والحبة هذه أيضًا تخرج زروعًا وفروعًا صغيرة.

فآزره: أي قواه، مؤازرة من المعاونة.

المعنى أن عندي بذرة أخرجت ساقًا، هذه الساق خرج بجانبها فراخ الزرع، فروع الحبة، فماذا حصل؟ نتيجة وجودها معًا حصلت المؤازرة، أي اشتدّ بعضهم ببعض.

﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ استغلظ أي أصبح قويًّا غليظًا.

﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ والسوق جمع ساق، وساق الزرع والشجرة أي الأصل التي تخرج فيه الأغصان أو السنابل.

﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ هذا التمثيل ما معناه؟ هذا تشبيه حال المسلمين في بدايتهم ونماؤهم حتى كثروا وانتشروا، فهذا يتضمّن بدء دين الإسلام ضعيفًا وكيف كان يتقوّى يومًا بعد يوم حتى استحكم أمره وتغلب على أعدائه، فلننظر في تفاصيل المثل:

شبّه الله عزّ وجلّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالزرع، والنبي صلى الله عليه وسلم زرَع في قلوبهم الإيمان، وكانوا هؤلاء المؤمنون الأوائل حبات الزرع التي بذرت في الأرض، الأوائل من المؤمنين أبي بكر رضي الله عنه وخديجة وعمار وبلال وعمار وكل من ابتدأ بالاسلام، ثم أتى هذا الفرع الشطأ الذين اجتمعوا وأيدوا المسلمين وانضم بعضهم إلى بعض، ثم قواه الله بأكثر وأكثر كما يُقوي الزرع الأساسي بما يلتف حوله ويتولد منه من زروع تقوي الساق، هذا يصل إلى حال ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾.

إذن هم قوم يُغاظ منهم، ما صفة الذي يُغتاظ منهم؟ الكفار يغتاظون منهم، لذلك قال مالك: "من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية"، إذن هذا الزرع العظيم الذي كان صغيرًا ثم استغلظ واستوى على سوقه يغيظ قومًا، يغيظ الكفار، فهذا المثل فيه من وصف أحوالهم التي كانوا عليها من الضعف إلى القوة، ومن التسلط غيرهم إلى إغاظة غيرهم بهم، حال يخص الصحابة، ويشير إلى أمر مهم:

أن من سار على سيرهم لا يستعجب أنه سيمر بحالة فيها ضعف، ومن دعا بدعوتهم لا ينزعج من حالة فيها كرب، فإن الإيمان كالزرع، كحبة البذرة تنبت في قلوب الخلق، فإذا نبتت في هذا وهذا وهذا اجتمعت فاستغلظت فاستوت على سوقه.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ وهذا دليل على أن الله عزّ وجلّ يغفر لكل من استقام على الطريق وآمن وعمل الصالحات، يغفر له، وله أجر عظيم، وهم قادتنا وسادتنا ومن نرجو من الله أن يجمعنا بهم يوم الدين مع النبيين والصديقين والأنبياء والصالحين.